

العلمنة مشروع فاشل / الأب يوحنا عقيقي. — في :

Annales de philosophie et des sciences humaines. — Vol. 25 (2009), pp. 155-165.

I. العلمانية

II. الأديان — دراسات مقارنة

[Metadata, citation and similar papers](#)

العلمنة مشروع فاشل

الأب يوحنا عقيقي

جامعة الروح القدس - الكسليك

بدأت فعلياً في فرنسا مع إطلالة القرن الماضي وأخذت في التراجع مع أفول القرن ذاته مبشرة بعودة الدّيني، والدّيني المتطرّف. وكأنّها لعبت على مدى هذا القرن دور 'المبيّض' لوجهه حسبه أحفادُ عصر الأنوار وقد غابت عنه شمسُ المعرفة. وغفل عن بال العقلاء منهم أنّ سوادَ الشمس قائمٌ في جوهرها، وظلالُ الأشياء مصدرُها شعاع نور، وإن أبدى خجلاً أو وقاحة في عرض جمال من ينيرهم، فهو على سكب الدفء في قلوب الجميع من موضع السموّ الأعلى لمكانة السرّ الكامن في قوّة الترابط ووحدة الحال عند كلّ جامد وحيّ.

وكم تصعب إمكانية الإقناع عند صاحب العينين وقد فجرّ الجدارَ الفاصلَ عن ثالثة لا تأبهُ لمشاهد نظريّة أو صوريّة إلا بمقدار ما أبدت خفقات القلب من مرونة في استيفاء الحقّ لمشاعر ارتبطت حتماً بما رآته الأوليان. في هذا السيّاق النظريّ المطعم بتدرّجات الرؤى الخياليّة والفكريّة والحسيّة، تُشرّح العلمنة على طاولة البحث عن سبب لفشلها قبل النضوج (حسب رأينا) وبعد استدراجها رويداً

رويداً إلى حقل الغام لم تقطعه سالمة. العلمنة كما يُحكى عنها شبح يخشى الأنوار الحقيقية ويضيع بين مفهومي وأكثر للهروب من الديني الرابض على كل مفرق وتحت كل قبة وخيمة وقناع.

أما الحديث عن علمنة شرق أوسطية، لبنائية حصراً، فهذا، في منظورنا، ضرب من ضروب السحر في كهف لما تبدّل بعد حال السحناء فيه. والجميع مطمئن لعرض الصور على حائط الإسمنت الصلب، بعدما اعترت المشاهد القديمة أشباح وظلال غير مرئية سببتها نتوءات وتعاريج الصخور الدهرية؛ فاستدرك صاحب العينين دقة الموقف، إذ استهَاب ثورة التكنولوجيا المتجددة أبداً، فعمل على تغيير جذاب في شاشة العرض، لأن فكرة الخروج من الكهف فالوقوف على عتبة الجوهر حيث الجواب مقنع أكثر، لم تنضج بعد، لا، ولم تكبر لتجد لها في حيز الفكر مشروعاً أخضر.

فمن أبعاد هذه الجدارية نستمد لشروحاتنا مفاعيل الجدلية وفنّ النقد البناء، غير المفكك déconstructiviste، وغير المختزل réductionniste وغير المهدم nihiliste. وربّ سائل عمّن يسيرُ عكسَ التيارات الآتية؛ هي الكلمة سيّدة العارفين والعالمين والمستعلمين على السواء، نسألها، فهي وحدها تحمل انعكاساً جوهرياً ومعنوياً لحق لا لبس فيه، وقد حملتها اللغة ما جمعتها الأيام من وقع الأقدام، ورشوة الأوهام، وسكب الأفلام، وكثرة الأزمات، ورونق الأعلام حتى التام الشمل بين قدم وجديد. وهي سيّدة كالحقيقة جوهر واحد وإن تعددت الوجوه والألوان. هي الكلمة تحملنا وقد أحاطت بها أجواق المرثمين "هوشعنا" لابنة البشر: أيتها الكلمة أنقذي إذاً! ...

نعم، في هذا الإطار يصحّ السؤال: كيف ولماذا تريدون العلمنة وهي ليست في قاموسنا؟ وكلّ مستورد يحملنا وزراً تنوء تحته ألطاف المعاني في شرقنا؛ ولا تلبث طويلاً حتى تلفظهُ الجوارح الكواسب لمجتمعاتنا بكلّ فتاها. فأمواج اليسار الأوروبي تكسّرت سريعاً على أقدام أهل اليسار وأحفادها. وبالرغم من أن بلادنا خضعت لانتداب رجال مؤسّسين للعلمنة الفرنسية، وحكمتها طائفة رواد النهضة العربية الذين استقوا من الغرب علماً وفهماً، بقيت معالجات الوضع السياسي والاجتماعي

تدور حتماً وحسراً في أفق الدين الطائفي، لأنّ كلّ من تعاطى الشأن العام في هذه الحقبة أدرك أهمية الدين والطائفة في حبك النسيج اللبناني^١.

والدين هو مكّون أساسي للإجماعي. قد تبدّل صور الآلهة وأصنامها، بينما التوق إلى الأعلى هو من خاصيّة هذا الإنسان صاحب العينين المرفوعتين إلى فوق. من لباب الفؤاد المفتور على الحبّ والسعي إلى الأعلى، فأعمق، فأكثر تجاويّة. فهل تريدون إنساناً داباً، مخنوع الرأس، يبحث، في ما يبحث، عن صيغة قانون يحجّمه ولا يرفعه؟ أم تريدون إنساناً أحاديّاً منسلخاً عن هويته الجماعيّة^٢ العلائقيّة التي توضّح فرادته المنفتحة في علاقاتها المتعدّدة؟ هل تريدون إنساناً مغلقاً على مفاهيم خاصّة، يمضي نهاره والليل في حرب ضروس مع ما يحمله لا وعيه الجماعيّ من تأثيرات ثقافيّة، وإثنيّة، ولغويّة تحدّد معنى حرّيته كفرد؟ لا تغيروا أفق الإنسان، ولا تبدّلوا في رسالة لبنان ! فالعولمة تحتاج كلّ البلدان والشعوب، "ولات حين مناص" لثقافة ما سوى التربّع على عرش المحلّي لتؤكّد استمراريّة الخاصّ

١. «C'est au terme d'un développement historique et significatif que le Liban aborde la vie politique moderne : Il s'agit d'une **nation façonnée par les siècles**. On ne saurait, sans méconnaître les raisons comme d'une création artificielle récente, profondes et les conditions nécessaires de son existence, en juger.

Toute étude du Liban moderne exige donc, à la fois, un rappel de son évolution historique et une analyse des éléments sociaux traditionnels qui continuent de jouer un rôle capital dans sa structure. Ainsi les principes sur lesquels la nation s'est édifiée et continue de subsister apparaîtront plus clairement : ainsi se justifieront mieux, dans leur réelle sagesse et malgré d'inévitables imperfections, les institutions politiques que l'Etat libanais s'est donné de nos jours. »

«... Le Liban se consacre alors, durant quelques années, à «vivre» en quelque sorte sa pleine indépendance, par l'**approfondissement conscient de la symbiose islamo-chrétienne** et des **grandes valeurs nationales**. Mais dans la mesure même où les problèmes de la nation sont résolus vont se poser ceux de l'Etat : il s'agira essentiellement d'amender les institutions à base communautaire, sans toutefois ébranler prématurément l'armature qu'elles donnent à la nation ; on devra donc **s'efforcer de faire du « pays légal » une image plus exacte du « pays réel », et de moderniser progressivement la structure et le fonctionnement des organisme nationaux...** » **II Les éléments traditionnels de la vie politique libanaise : communauté, féodalité, clans...** Pierre Rondot, « Les structures Socio-politiques de la Nation libanaise », dans *revue française de sciences politiques*, Année 1954, Vol. 4, numéro 1, pp. 80-104

٢. هذا ما تقوم ضده العلمنة الراضة للهوية الجماعيّة لأنّها تبشّر بهويّة فرديّة تكسب بترية الحسّ النقدي وحرية الاختيار والتصرّف. ولكن الهوية الجماعيّة لا تتعارض أصلاً والحرية الفردية التي تنمو في التاريخ وفي اللغة وفي الجماعة.

في العام، دون الذوبان، أو لا سمح الله الاضمحلال في شرنقة غاب افتراضية، لا نعرف بعد إلى ماذا سوف تُفضي في تحولاتها السريعة. وهذا هو الخطر الأقرب إلينا والأشدّ قساوة، إن تحالفت العلمنة مع العولمة في إنتاج عالمي قد يُصنّع في "تايوان أو في مدغشقر" للاستهلاك السريع في كل مكان.

قد تكون العلمنة في مفهومها الرائد ترجمة للسيكولاريسم Secularism وليس لللايسيت Laïcité. فمفهوم اللايسيت الفرنسية التوضع (لأنها يونانية المصدر وتعني ما كان من الشعب Λαος - استعملت هذه الكلمة لترجمة شعب الله والكنيسة في السبعينية^١) - تحيى الكثير من الإلهام والتناقضات، فهي توهم أنها ليست ضدّ الديني بالطلق، بل ضدّ استنثاره بالسلطة الروحية، والمدنية، والحقوقية القانونية. وفي الواقع، هي خصومة عتيقة وثورة على نخبة رجال الدين ومن خلالهم على المسيحية الكاثوليكية بوجه التحديد، وضدّ فحوى ونظام المعاهدة الدينية concordat بين الدولة والكنيسة. (معاهدة استفاد منها النظام الحاكم، الإمبراطور، قبل الكنيسة، وكان سقوط الباستيل تمهيداً مباشراً لسقوط المعاهدة ولنبدّ الديني الإكليريكي^٢ والتربوي والقضائي...). في هذا الإطار،

١. και ἐξάξεις τὸν λαόν μου τοὺς υἱοὺς Ἰσραὴλ ἐκ γῆς Αἰγύπτου: tu feras sortir de cette terre mon peuple, les fils d'Israël (Ex 3, 10) ; και ἀήμφομαι ἐμαυτῷ ὑμᾶς λαόν ἐμοὶ και ἔσομαι ὑμῶν θεός : Vous serez mon peuple et je serai votre Dieu, (Ex 6, 7) ; και ἐμπεριπατήσω ἐν ὑμῖν και ἔσομαι ὑμῶν θεός, και ὑμεῖς ἔσεσθέ μου λαός : je serai votre Dieu et vous serez mon peuple (Lv 26,12) ; ὅτι λαός ἅγιος εἰ κυρίῳ τῷ θεῷ σου : car tu es un peuple saint pour le Seigneur ton Dieu (Dt 7, 6) ; ἐξομολογησάσθωσάν σοι λαοί, ὁ θεός, ἐξομολογησάσθωσάν σοι λαοί πάντες : les peuples te célèbrent ὁ Dieu, tous les peuples te célèbrent (Ps 67, 4) ; διότι λαός ἐστὶ μοι πολὺς ἐν τῇ πόλει ταύτῃ. : parle, car j'ai un peuple nombreux dans cette ville. Ac 18, 10 ; οἱ ποτε οὐ λαός νῦν δὲ λαός θεοῦ, οἱ οὐκ ἡλεημένοι νῦν δὲ ἐλεηθέντες. : vous qui autrefois n'étiez pas un peuple, et qui maintenant êtes le peuple de Dieu, vous qui n'aviez pas obtenu miséricorde, et qui maintenant avez obtenu miséricorde IP 2,10

كذلك كلمة عالم *κοσμος* التي تعطي في اللاتينية سيكولاريس Saeculum, Seacularis هي إنجيلية يوحناوية بالتحديد. يوحنا ١٩، ١٥؛ ٣٣، ١٦؛ ١٧، ١٤ و ١٨، ٣٦، وقد ميز يوحنا بين مفهومين للعالم: الطبيعي وما هو عالمي، للعالم وفي العالم، أي ما كان ضدّ البعد الروحي، السماوي.

٢. الإكليريكي هو الضدّ أو المنافس الأوّل للعلماني وذلك في عرف رجال الاختصاص المدافعين عن العلمنة، وهذا ينفي الطرح الأساس للعلمنة كتحرير من أي سلطة وتنافس على أدوار ضمن المجموعة الواحدة وفي إطار حفظ حقّ الجميع والعدالة للجميع. Pena-Ruiz, p. 28-29، بخاصة وأنّ حقّ الإمتياز يعود طبيعياً إلى المتفوق روحياً

يصعب تصديق ما تخبئه العلمنة المستوردة، وقد استلّت ما لشعب الله لتؤرضه وتعلمنه، وهذا هو الخطر الثاني الذي يستهدف الكلمة ويحوّر في مسارها (وكان الأجدى ترجمة اللايسيت بالشعبوية). وإن استهدف هذا المخطط المارونية السياسية، وبعدها السنّة السياسية، فجولاته محاولات بائسة، لأنّ استدراج المارونية إلى العلمنة مشروع تهجير لن يمرّ (فالمارونية أرض وثقافة وشعب)، واستهداف السنّة مشروع استبعاد عن السلطة أو تحجيم لها، وهذا أيضاً صعب المنال. بينما تبقى العلمنة عصيّة على الإسلام بكلّ طوائفه (ولو نادى بها أهل الشيعة والدروز كما في إحصائية ٢٠٠٧، فمناوراهم لكسب الوقت ولتعويم السياسيّ الفتويّ على حساب الوطنيّ)؛ فلا مجال عنده لفصل الدّين عن الدولة مهما حلّق المتكلمون الجذّد وطوّروا في فتواهم، فالله هو المتكلم الأوّل والأخير، المنزل، الكاتب، وإليه يعودون. قد تكون هناك محاولات في تطوير بعض القوانين أو إعطاء بعض الحقوق، للمرأة بوجه التحديد، ومن خارج النصّ الكتابيّ، كما في تونس وتركيا، ذات غالبية دينيّة من لون واحد - سنّة (أين حقوق المسيحيّين في تركيا؟). ولكنّ عدوى هاتين الدولتين لما تنتشر بعد كما يبدو؛ وهي ما كانت لتثبت، لولا الحكم الصارم في كِلا البلدين.

في فحوى الكلمة ومدلولاتها، وفي ثالوثيتها المعارضة، تكون العلمنة الفرنسيّة مشروع تحقيق لحرية الضمير والمعتقد، والعدالة للجميع، وشموليّة همّ في العام أو الاهتمام المركّز على الشأن العام. وهذا ما شدّت فعلاً الكنيسة عنه في اتباعها الخلط بين السّلطتين المدنيّة والدينيّة، وفي اعتبارها، لزمن طويل، أنّ لا خلاصَ لأحد خارجاً عن بركتها. وإذا صُحّح الخطأ تكون الكنيسة هي الرابح الأكبر في عودتها إلى جذور جماعتها الأولى، إلى الفصل بين السّلطتين، وإلى تحقيق شامل وكامل للعدالة الاجتماعيّة؛ فلا يكون هناك كاثوليكيّ، وأورثوذكسيّ، ولوثريّ، ويهوديّ، ومسلم، ومُلحد، بل

كان أو لا. لا ننسى أنّ المشادة العنيفة بين نيتشه والكاثوليكيّة قامت أصلاً على رفض ما سمّته الأخيرة المساواة، لأنّ نيتشه يرفض مقولة مساواة البشر فهناك القويّ وهناك الضعيف وهذا طبيعيّ.

١. استناداً إلى كلمة السيّد المسيح "أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، مرقس ١٢، ١٧.

مخلصون بالمسيح يسوع^١. وإن تمتع البعض عن المشاركة فالإقناع هدفٌ أساسي^٢، لإيماننا المستنير بصوابية الطريق الذي نسلك، ولقناعتنا الراسخة بأن الغاية لا تبرر الوسيلة، بل لأن كافة الطرق تؤدي إلى السماء، وتقرب من الله. هذا، إن اقتنع المؤمن بصوابية الطريق وأحسن السير المستقيم عليها. من هذا المنطلق لا نجد في لبنان حاجة إلى تثبيت هذه الثلاثية على بساط البحث والتحقيق، لأن حق كل طائفة مصون قانونياً ودستورياً وعرفياً وعملياً. وإن كانت هناك من صعوبات في التنفيذ أو ثغرات في بعض القطاعات فهذا يعود حصراً إلى تقاعس، أو تواطؤ، أو إهمال في العمل السياسي، وفي صيانة الشأن العام، مما يسبب بارتفاع صوت المحرومين والمهمشين، والانعزالين، وهذا هو الخطر الثالث الذي يتأتى أيضاً من السياسيّ المستبد الذي قد توفّره علمنة لا مرجعية عليها سوى قانون تترهل فيه المباحثات و تستفيض التفسير والفتاوى المختلفة، ليستقرّ حكم الأقوى على الضعيف.

أما في ما يعود إلى مفاعيل العلمانية الغربية وما آلت إليه حال البلدان فيها، فنحن نشهد على تفكك ملحوظ في الترابط الأسري، أساس كل علاقة إجتماعية ووطنية، يرافقه تفكك النفسي والعقلاني عند الفرد المتوقع على ذاته. وإذا كانت الدول الغربية تساهلت مع كل ذي معتقد بممارسة حقه في الاختلاف، ونمت عندئذ الشيع المتعددة ذات التصورات الشريرة والعنفية الإنفعالية، أحياناً، وضعت المحاذير على بعضها وصارت تساهلات مع البعض الآخر دون الخروج برؤيا موحدة، حتى الآن، فيما يخص سلة من الأمور العالقة، وآخرها طرح الكنيسة العلمانية وموضوع الهوية في فرنسا^٣.

١. راجع غلاطية ٣، ٢٨: "لا يهودي بعد ولا يوناني، لا عبد ولا حرّ، لا ذكر ولا أنثى، فإنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع" و كولوسي ٣، ١١: "فلا يوناني بعد ولا يهودي لا ختانة ولا قلفة، لا أعجمي ولا إسكوتي، ولا عبد ولا حرّ، بل المسيح هو الكلّ في الكلّ".

٢. إنه إقناع وليس إرغام كما حاول البعض تفسير مثل يسوع في لوقا ١٤، ٢٣، حيث يطلب السيّد من خدمه أن يحملوا الناس على تلبية دعوته. وقد ترجم البعض أجبرهم أو أكرههم على الدخول، وهذا غير صحيح، إذ يوافق هذا القول ما يأتي في لوقا ٢٤، ٢٩ و رسل ١٦، ١٥، وهناك تشديد على الإقناع.

٣. C'était sur France 2, le 26 novembre 2009, que Jean-François Copé et Martine Aubry se sont défendus sur les idées des deux Partis concernant l'Identité nationale, un débat qui fut lancé par le Président français Nicolas Sarkozy lui-même. Le propos de Copé se précise sur un état d'urgence où « la Nation, dit-il, se fissure en silence » « l'identité nationale serait alors « la question la plus essentielle », « elle va structurer tout le débat public durant les dix années qui viennent ». « les

إنّه خير دليل على دقّة المرحلة التي وصلت إليها العلمنة حيث نشأت وترعرعت. وهذا هو الخطر الرابع الجسيم، الذي يحفّر لقيام مثل هذه الجماعات غير المنضبطة والتي تستفيد من حرية مدنيّة لتؤسّس مملكة إرهابيّة وتصادميّة.

ومن ناحية أخرى، لم تلغ العلمنة، في فرنسا على سبيل المثال لا الحصر، أعياداً وطنيّة كجميع القديسين والتّياح والميلاد والفصح، لأنّها تعلمُ جيّداً ما دور هذه الأعياد في الحياة الاجتماعيّة وأبعادها الإنسانيّة. بل إن روزنامة الدول في الغرب "العلماني" لا زالت مسيحيّة في محطّاتها أوقات الذروة فيها. وكلّنا يعلم ما أهميّة هذه الروزنامة على طاولة صاحب السلطة مدنيّاً كان أو رجل دين. إنّها أوقات يتعادل فيها الغنيّ والفقير، القويّ والضعيف، العالم والأُمّي، المؤمن "والجاهل"، تاركة، لمزاجه، وفكره، ولقلبه، فسحة العودة إلى الذات، إلى سبت المهابة والإحتفال، سبت الراحة والارتقاء، إلى إنسانيّة تعرف حدود الزمان والمكان. في الفنون كما في الدّين، كما في السياسة، يمكننا أن نحوّل كنيسة إلى متحف، أو معبداً وثنيّاً إلى مصلىّ خشوعي، ولكنّا نعجز عن تحويل الروح الإنساني إلى حجر أصمّ، لأن الصمت في الحجر، ككلّ ما في الكون، إنّما هو تموضع للروح البشريّ الذي يرى ويسكن كلّ شيء.

gens, dans des quartiers entiers, dans les halls d'immeubles, dans les couloirs des HLM, ne se parlent pas, ne se respectent pas, parce qu'ils ne se connaissent pas. ». Alors que pour Mme Aubry, elle reproche à l'UMP et surtout, au Président de la république, d'ouvrir ce faux débat 4 mois avant les élections régionales 2010. Elle dénonce ce faux débat dans « *un pays où montent chômage et inégalité* ». Pour elle, M. Sarkozy, « *fait honte à la France* » et « *et la nation ne lui pardonnerait jamais d'avoir mélangé l'identité nationale à l'immigration* », cité par le Monde, 28 novembre 2009, La une et page 10.

À la même page et sous le titre : *Les jeunes du FN récupèrent de Gaulle*, « *un patriote* », on lit : « Le FNJ a créé une affiche reprenant l'image de Charles de Gaulle, encadrée de deux slogans : « *Jeune Français, défends ton identité !* » et « *Le Front National de la jeunesse, l'esprit de résistance !* ». Mais à côté de cette image, une citation sur l'identité nationale de l'ancien chef de France libre, tirée du livre d'Alain Peyrefitte c'était de Gaulle : « *C'est très bien qu'il y ait des Français jaunes, des Français noirs, des Français bruns, Ils montrent que la France est ouverte à toutes les races et qu'elle a une vocation universelle. Mais à condition qu'ils restent une petite minorité. Sinon, la France ne serait plus la France. Nous sommes quand même avant tout un peuple européen de race blanche, de culture grecque et latine et de religion chrétienne.* »

في هذا الإطار، لا تجد العلمنة الفرنسية سوقاً لها في لبنان والشرق، لأنها وليدة حاجة غربية أحاطتها ظروف خاصة، أهمها أولاً، التطعم الأوروبي السريع وغير الناضج على مسيحية شرقية المنشأ، لم يكن من الممكن تحقيقها قبل البلوغ إلى ملء الزمن، إلى حقبة توافرت فيها كل الظروف الاجتماعية، والإنسانية، والثقافية المؤاتية. فتشابكت الطرق، وسطعت نجمة الميلاد، كاشفة سرّ الإله المتجسّد، المسيح المخلص، الذي يقف أمام الحاكم الروماني حقيقة لم تكن في زمنها جلّية الوضوح لعقلانية غير سامية^١. وثانياً، إنّ حرب الديانات في نسختها الأوروبية لا تشكّل رديفاً لما حصل عندنا. ولا يمكنها أن تكون، بالتالي، قاعدة لإثبات الضعف الكامن وراء انفعال التدين الأصولي والتعصب غير المرر. وثالثاً، ليس ثمة حرب قائمة ولا تسلط ظاهر للإكليريكي على غيره من طبقات المجتمع. فكهنه اليوم ورجال الدين عندنا ليسوا من رواد المعاهدات الخاصة مع الدولة، التي وإن كانت تحمي الأوقاف، وتوظف المفتين، وتحترم المحاكم الدينية، مهما كثرت أو بانّت بعض التجاوزات فيها، فهي تحفظ أيضاً حقوق المواطنين كافة. من جهته، لم يعرف الإسلام بعد حركة إصلاحية جذرية كما حصل مع البروتستانتية الأوروبية. وقد يكون هناك تنافس على السلطة الأولى بين الطوائف المسيحية في لبنان، ولكنه أمر عادي لا يشكّل سبباً كافياً للمطالبة بعلمنة تعدل أو تبشّر بعدالة أفضل (إذا سلّمنا أن العدالة هي أساس الحركة العلمانية) طالما حقّ الجميع مصانّ دستورياً وبالتوافق. ومن ناحية ثانية، لم يعد المؤمن المثقف شديد التعلّق بمذهبية لا تراعي طموحه، فنراه سريع التنقل من دين إلى آخر ومن مذهب إلى آخر دون أن يتعرّض للخطر. (مسألات الطلاق والزواج المختلط) لذا، فالظروف والأطر التاريخية والثقافية، كما الحاجات اليومية ونمط العيش والتفكير، لا تُستورد من مرافئ الغير لتهيئ مناخاً تُطرح فيه العلمنة بديلاً عن النظام المعمول به في لبنان.

إنّ اتقاننا المشاركة الفعلية في هذا النظام (واسمحوا لي أن أقول اللبناني الصنع والماروني الإلهام والتطهير)، كفيل لإقناع الدول المجاورة، والغربية على المدى القريب، باستنتاج العبر والعمل بالمثل على

١. عندما سأل بيلاطس يسوع المحكوم عليه: "وما الحق؟" استفهماً غريباً لتصريح يسوع: "... ولدت وإلى العالم

أتيت لأشهد للحق. كلّ من هو من الحق يشهد لصوتي." (يوحنا ١٨، ٣٧-٣٨)

٢. الجوهري: الرديف النجم الذي يتوّء من المشرق إذا غاب رقيقه في المغرب

قاعدة حفظ الحقوق والواجبات للجميع، دون تمييز، ودون تفرقة بين أهل البلد الواحد، فيتطوّر معنى الذمّة في التداول والاجتهاد، ليصبّ في بوتقة المشاركة الحرّة في القرار وفي الحقوق والواجبات. ويتروحن أكثر موقف الخلاص للجميع، فيتضامن المسيحيّ مع غير المسيحيّ على إعلاء شأن المسؤولية الجماعيّة، التي توفّر مناخاً صالحاً لبلوغ هذه الشراكة الحقيقيّة. عندئذ تصفى الديانات السماويّة إلى جوهر الإيمان بالآله الواحد، وتترك حرّيّة التعبد والاختيار لضمير الفرد دون الترهيب أو التهديد. هكذا تصان حرّيّة الفرد في الجماعات، حرّيّة الاختلاف مع الحقّ في المشاركة التي تحتمي وراء سور العدالة للجميع، وهي عدالة لا تُرتشى، لا توظّف ولا ترقن.

إذن ليست هناك حاجة لمقاتلة رجالات الدّين الذين يتعاطون السياسة بل لاستئصال المرض والمزایدات الطائفيّة عند السياسيين في لبنان. فمشكلة لبنان ليست في الدّين، بل في السّياسي الذي يعتمر الدّيني ليحكم. وأنتم تعلمون أنّ العقلاء من رجال الدّين عندنا هم الذين أبعدوا واضطهدوا واستشهدوا وليس المتطرفين منهم. ولأن المشكلة سياسيّة محض، أُدخِلت الطائفة، في لبنان والشرق العربي، إلى حظيرة الإسترلايّة الصنميّة، والمبايعه، والعشائريّة والمناطقية؛ وكلّها انكشافات مرضيّة تنمّ عن قصور في الفهم والعقلانيّة، وفي إدراك معنى الحرّيّة الفكريّة الفرديّة والإجتماعيّة، وهذا هو الخطر الخامس والأكبر الذي يهدّد مجتمعنا اللبناني.

إنّ ظروفات دولة الرئيس برّي المتكرّرة اللاعبة على حلبة السّياسي الديموغرافي العددي هي الخطورة القصوى التي تهدّد وجه لبنان الحضاري، وهويّته الشرقيّة المميّزة، وليس النظام الطائفي كما يطيب له القول مع الدائرين في فلكه. الدّيني هو الحجرُ العَقْدُ وهو صخرة الأساس لهيكليّة المجتمع اللبناني. زلّرها الأرجوان، وكحلّ ربيعها سوادٌ من بعيد، وسما بها لبانُ الجبل بأبيضه وطهره. إنّ لبنان الوطن والمجتمع والرسالة. هذا من ناحيتنا القريبة، أمّا وإن عدنا إلى مُلكات القواعد وعلم اللغة ونظريّات العلماء في المجتمع والسياسة والقانون، فكُلّنا يعلم، ولا ضرورة للاستفاضة في هذا القطاع الهامّ، أنّ مفاهيم السلطة، والحكم، والعدالة، وحتى الحقيقة، كلّها مواليدُ الدّيني، ومن صناعة الدّيني،

وعلى جداول صدارات الدّيني، في الدّيني العام والخاصّ، وبينه وبين الاجتماعي، والسياسي، والحقوقي، والأدبي...

في هذا السياق، لا تشكّل العلمنة، في رأينا، مرحلة إلزاميّة وضروريّة في مسار ترقيّ الشعوب وتطوّرها (الأمثلة كثيرة في شرقنا الروحي، كما قد تكون العلمنة مرحلة انحطاط عند بعض الشعوب). فهي وإن ساعدت في الغرب على نموّ ما، فلا يعود ذلك فقط إلى الضمير الواعي الحرّ المنتفض على تجاوزات دينيّة معيّنة، بل هو أيضاً انفعاليّ طبيعيّ للإنسانيّ الرافض لشتّى التعديّات المرضيّة على صحّة الاجتماعيّ والخلقيّ في جسم المجتمع الواحد. ومما لا شكّ فيه، أنّ مسيحيّة فرنسا، وأوروبا بشكل عام، ساهمت بطريقة فعّالة في تقبّل ما يمكن وصفه بالعلاج الطويل الأمد لتنقية الجسم الكنسيّ ممّا وصل إليه من هستيريا السلطة والتحكّم بمصائر العباد. في كلا الحالين، ومهما أطلنا الكلام في السياسة، وتبحرنا في العلوم، وعمّقنا في الفرضيّات والنظريّات الفلسفيّة لمفهوم العلمانيّة، تبقى المسألة رهينة التحديّ الصارخ لنخبة مثقّفة ترفض الدّيني، وترفض رأي النخبة المثقّفة المؤمنة واستعلائها ولو أظهرت هذه الأخيرة كلّ علامات الانفتاح واستوعبت مضامين الحركة الإنشائيّة من الدّيني إلى الدنيوي. وإن قدر للتاريخ أن يقول كلمته بحريّة فنراه يثار من هاتين الطبقتين اللتين استأثرتا بالصفحات الجلّي منه، وأهملتا السواد الأعظم، هؤلاء العاميون البسطاء Les laïcs، الذين سوف يكملون وينتصرون كما تنبأ نيتشه وحلّل في كتاباته الثوريّة: الضعيف هو الذي ينتصر في النهاية، شاء داروين أم أبي.

في الختام، اسمحوا لي أن أقول إن استيراد العلمنة إلى منطقتنا مشروع فاشل. وإذا كانت الدعوة، في المقابل، هي لتطوير النظام القائم، وجعله أكثر مناعة ضدّ الفساد السياسي، فقد يكون الرّجوع إلى المسيحيّة الخارجة عن ذاتها، والعائدة بقوة إلى جذورها، خير دليل لاستلهاام المعاني الأساسيّة لقطاعات إدارة الشأن العام وتحقيقها وتموضعها في العلاقات العامّة والخاصّة. ولا نقول وفي.

المسيحية الكنسية بل مسيحية الشعب، لايبك *peuple chrétien*، مسيحية الثقافة، ثقافة المحبة والقبول بالآخر، كل آخر، كما يريد هو أن يكون، لا كما نراه ونريده متسامحين^١، وذلك ضمن منظومة الحقوق والواجبات للجميع، في شرعة يحفظها العدل السماوي.

١. إن ثقافة المحبة تختلف كلياً عن ثقافة التسامح الإستعلائية التي رُفضت أوروبا من قبل البروتستانت وغيرهم بعدما نادى الإصلاحيون العلمانيون بمكذا تسامح مع بقية الديانات.

« Mais, Messieurs, ce n'est pas la Tolérance que je réclame ; c'est la liberté. La Tolérance ! Le support ! Le pardon ! La clémence ! Idées souverainement injustes envers les Dissidents, tant qu'il sera vrai que la différence de Religion, que la différence d'opinion n'est pas un crime. La Tolérance ! Je demande qu'il soit proscriit à son tour, et il le sera, ce mot injuste qui ne nous présente que comme des Citoyens dignes de pitié, comme des coupables auxquels on pardonne, ceux que le hasard souvent et l'éducation ont amenés à penser d'une autre manière que nous... » Rabaut Saint-Etienne, *Œuvres*, éd. Laisné, 1826, cité dans *La Tolérance*, éd. J. Saada-Gendron, GF Flammarion, « Corpus », 1998, p. 162-166

« Je ne viens pas prêcher la Tolérance. La liberté la plus illimitée de religion est à mes yeux un droit si sacré que le mot tolérance qui voudrait l'exprimer, me paraît en quelque sorte tyrannique lui-même, puisque l'existence de l'autorité qui a le pouvoir de tolérer attente à la liberté de penser par cela même qu'elle tolère, et qu'ainsi, elle pourrait ne pas tolérer » Mirabeau, *Discours à l'Assemblée*, 22 août 1789, cité par Henri Pena-Ruiz, *La Laïcité*, GF Flammarion, « Corpus », 2003, p. 141